# ذات الثوب الأرجوانى

## للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

(تنبيه : الكلام خيال ولا أصل له ، كما ملت أن أقول وأؤكد فى كل مرة)

— ٤ —

غضبت علينا ذات الثوب الأرجوانى ... وما أعرف لى ذنباً جنيته إلا النظر ، وما أحسبها تريد أن تحرم هذا علينا أو تكرهه منا . وأين المرأة التى يسوءها أن ينظر الرجال اليها ويعجبوا بها ويفتتنوا بحسنها ؟ أو يسرها أن ينصرفوا عنها ولا يبالوها ولا يعنيهم أبقيت بينهم أو أمامهم ، أم اختفت عن عيونهم ؟ إن إتباعَ النظرةِ النظرةَ ثناءٌ صامت . والثناء قوت المرأة — وخمرها أيضاً — وقد ترى نساء يسوءهن النظر اليهن لسبب غير راجع إلى وحى الطبيعة فى نفوسهن ، فيرتبكن ويضطربن ، وتضيق الدنيا فى وجوههن ويشق عليهن ذلك حتى ليكبر فى وهمهن أنهن جنينه على أنفسهن وآثرن فضول الرجال . ولكن حتى هؤلاء لا يكرهن الثناء ، بل تشرق له وجوههن ، وتنشرح صدورهن ، إلا إذا جاوزت الاطراء إلى ما هو خليق بسبب تشأنهن أن يزعجهن . وقد كنت مرة أتعلم الفرنسية وأتلقى دروساً فيها على فتاة أمها روسية وأبوها نمسوى ، فاستغربت بعد بضعة أيام أنها تلقانى متجهمة ! وبدا لى أنها تستثقل الدرس والتلميذ ، فشكوت إلى صديق وقلت له : إن معلمتى لا تكف عن النفخ ، وأنها طول الدرس تتأفف ، وإنى أريد أن أبحث عن معلمة أخرى ، فلست أطيق هـذا الضجر الذى لا تنفك تواجهنى به . فقال : « لا تفعل » . قلت : «ولكنى لا أستطيع الصبر على هذه الحال» . قال : «لك العذر ، ولكن ضاحكها وعايشها ... اثن على حسنها ... غازلها برفق ، أى من غير أن تخرج عن حدود الأدب » . فوعدته أن أجرب ذلك . وقد كان . أقبلت طيها فأقبلت علىّ ، وصارت تهش لى وتبش ، وأصبحت تليينها الأثير . وكان لى زميل يتلقى عليها دروساً فى وقت آخر ، وكان مثلى قبل أن يرشدنى صديقى ، أى أنه كان معها كأنها معلم بلحية لا معلمة مدلة بجمالها وشبابها ، فكان إذا جاء تعبس وتقول : فليتنظر ! فأقول لها : « بل أخرج أنا لئلا يغضب فيضيع عليك درسه » ، فتقول : « دعه يغضب ... إنه يملنى ويزهق روحى» . وكان اسمه « عثمان أفندى » فصرنا — هى وصديقى الذى علمنى وأنا — نطلق اسم « عثمان أفندى » على كل من نراه بليدا جامدا فى حضرة النساء

وأعود إلى ذات الثوب الأرجوانى فأقول إنها كانت راضية عنى . وآية رضاها أنها ظلت أياماً لا تبدو لى إلا فى ثوب أرجوانى . وكنت لا أراها إلا خفيفة مرحة ، واذا بها — فجأة — تخرج إلى الشرفة فى صباح فلا تكاد ترانى حتى تنثنى راجعة ، فأعجب وأتساءل : « مالها ؟ ... » ولا أجد جواباً لسؤالى ، فأهز كتفى وأقول : « سنرى » ، ولكنى لا أرى بعد ذلك إلا الاعراض والنفور وطول الاحتجاب ، فلا يسعنى إلا أن أعرض أنا أيضاً ، وأن أظهر قلة المبالاة ؛ فلا أفتح النافذة ولا أطل منها إذا كانت مفتوحة ، ولا أنظر اليها إذا طلعت ، فان فى طبعى عنادا ، وأنا مفطور عليه وعلى المجازفة ، ولست أعرفنى اكترثت للعواقب حين يستفزنى شىء . وما أكثر ما أخسر بسبب ذلك . ولكنى أستطيع أن أكبح ثورة نفسى ولا أستطيع أن أصرفها عن الزهد . وما عجزت قط — إلا فى الندرة القليلة — عن ضبط عواطفى وصد نفسى عن الاندفاع ، ولكنى أراني عاجزاً عن علاج نفسى إذا انصرفت عن الشىء وحملها على الاقبال عليه مرة أخرى . وقد كانت أمى تقول إن قلبى أسود ، وكانت تعنى بذلك أنى لا أنسى الاساءة ؛ على أنى لا أنسى المعروف أيضاً ولا أجحده ، فأنا كما يقول ابن الرومى : « للخير والشر بقاء عندى» ، وقد صدق فانا من طينة الأرض ، « والأرض مهما استُودعت تؤدى » . وما أساء إلىّ أحد إلا نازعتنى نفسى أن أنتقم منه ، ولكنى لا أزال أحاورها وأداورها حتى أقنعها بأن الدنيا تغيرت ، وأن أخلاق البدو لا تصلح فى هذا العصر المتحضر ، وأن الناس لا يقتل بعضهم بعضاً فى هذا الزمان من أجل تمرة أو من جراء كلمة يسبق بها اللسان ، حتى تسكن وتكتفى بالانصراف

وجلست أحاسب نفسي وأسائلها عن ذات الثوب الأرجواني ماخطبها ؟ . ولِمَ تبدى لي هذا النفور ؟ . أتراها تتكلفه ؟ . ألعل أهلها قد أغاظوا لها وضيقوا عليها فرأت أن تخفف عن نفسها وتعفيها من ثقل تدخلهم بالاحتجاب ؟ . ألا يجوز أن يكونوا قد كرهوا مني طول النظر اليها فكلموها في ذلك فلم يسعها إلا أن تكف عن الظهور ؟ . جائز ! ! ولكن من الجائز أن أكون قد صنعت شيئاً أغضبها . . ومن الحزم على كل حال أن أعرض أنا أيضاً الى حين ، حتى تسكن الثورة التي لعلها ثارت في بيتها وبين أهلها . . ولكن من الانصاف أيضاً أن أحاسب نفسي قليلاً . . فتعال هنا . . اخل بنفسك واجتهد أن تتذكر . .

فتذكرت . . . ذلك أني كنت يوماً في حجرتي فزارني صديق : وكان الجو حاراً جداً ففتحت له النوافذ جميعاً ، فقال لي بعد برهة : « أنظر . . » فسألته « ماذا ؟ » قال « هذه النافذة . . ألا ترى الفتاة التي تبدو منها ؟ » قلت : « إنك بعيد النظر . . وأنا أعترف أني لا أرى فتاة وإنما أرى ذراعاً » قال : « هذا ماأعني . . لا يبدو منها الآن إلا ذراعها ولكنها كانت منذ لحظة تطل علينا وتنظر إلينا » . قلت : « جائز . . كل شيء جائز . . صحيح إن العمارة التي نحن فيها سبع طبقات . . أو عشر . . لا أدري . . وفي كل طبقة شقق كثيرة . . ولكل شقة نوافذ وشرفات لم أعدها . . وقد يكون في بعض هذه النوافذ والشرفات التي لا أراها رجال يطلون منها . . ولكن المعقول أن الفتاة التي لا أزال لا أرى منها غير ذراعها — تنظر إلينا نحن دون هذا الخلق الذي لعله في الشرفات والنوافذ ونحن لا ندري

قال : « لا تمزح . . إن نظرتها إلينا نحن . . وهل يخفى اتجاه النظر ؟ »

قلت : « مايدريني ويدريك ؟ . ألا يمكن أن تكون حولاء ؟؟ تعرف كيف ينظر الأحول !؟ تكون عينه عليك ولكنه لا يراك بل يرى الذي الى اليمين أو الى اليسار . . أليس هذا جائزاً ؟ »

قال : حولاء ؟ ؟ كلا ! ! من قال هذا ؟ ؟ كلام فارغ ! ! إن عينيها جميلتان جداً »

قلت : « معذرة ! إني — كما تعلم — لم أر سوى ذراعها . . وعهدي بالعيون تكون في الوجوه لا في الذراع . . وأظن أن هذا النظام لا يزال هو المتبع في الخلق . . . على كل حال لم أر عينيها الجميلتين . . . »

قال : « والله إنها تنظر إلينا »

قلت : « صادق . . صادق . . . هذه أصابعها تنقر على حافة النافذة ولا شك أنها تعنينا الآن . . »

فقال : « دع المزاح بالله . . أنظر . . أنظر . . »

فنظرت . . وكففت عن المزح بلا حاجة الى زجر آخر . . وكانت الفتاة سمراء — لا بيضاء كذات الثوب الأرجواني — وكانت نظرتها إلينا — لا شك في ذلك — والرجل يدير رأسه أن يرى امرأة تُثنيه النظر ولا تكاد تحول عينها عنه . فاذا كنت قد نهضت الى النافذة وأخرجت رأسي منها ورحت أحدق في هذه السمراء الجميلة التي تقبل علينا ولا تعرض عنا أو تتدلل علينا ، فأظن أن لي العذر . . ومن أين لي أن أعرف أن ذات الثوب الأرجواني كانت واقفة في هذه اللحظة وأنها كانت تراعيني وتراقبني ؟ ؟ ولو كنت أعرف ذلك لما صدني عن النظر ، فان حبي لذات الثوب الأرجواني ليس معناه أني عميت وأن عيني لا تستطيع أن ترى غيرها وأني فقدت القدرة على الاعجاب بالجمال في مظاهره المختلفة . ولكن المرأة أمرها غريب ، وإني لأذكر أني كنت راكباً مع فتاة من صديقاتي — وكنت أنا السائق كما لا أحتاج أن أقول — فرأيت فتاة جميلة واقفة على الرصيف فتمهلت لأنظر اليها ، وإذا بصديقتي تقرص أذني فصرخت فقالت : « هذا جزاؤك » فسألتها : « ماذا صنعت ؟ . . بأي شيء أستحق أن تقطعي لي أذني ؟ ؟ . وكيف أستطيع أن أسمع صوتك الحلو بعد ذلك » فقالت « ابق اسمع صوت التي كنت تنظر اليها الآن » قلت « مالها ؟ . . ألا تعجبك ؟ . ألا ترينها جميلة ؟ » فعادت الى القرص ، وعدت الى الصراخ ، حتى كدت أستنجد بالمارة . وقد ساء رأي صاحبتي في بعد ذلك ، وصارت كلما ركبت معي تشترط ألا أنظر لا يمينا ولا شمالا ، فأقول : « ولكن لماذا ؟ ما الضرر من النظر والتلفت ؟ ثم كيف أستطيع أن أثبت عيني في اتجاه واحد وقد خلق الله لي عينين تتحركان ولا تثبتان ؟ » فلا تجيب عن السؤال وإنما

تروح تهددني وتتوعدني فأخاف فان لها قرصا حاميا وأنا جلدي رقيق . ولكني لا أفهم هذا التحكم من المرأة . وما أكثر ما قلت لاحداهن وقد أغضبها أن لي عيناً ترى وقلباً لا يسمه إلا أن يحس « يا ستي إن لك حديقة زهر . وفيها الفل والياسمين والورد الأحمر والأبيض والنرجس وما لا أدري أيضاً . . وأنتن يا نساء كالزهور .. فلماذا تريدين ألا تكون في حديقتي إلا حواء واحدة ؟ »

فتقول : « بالله دع هذه الفلسفة السخيفة . . . ثم إني أكره المكايدة »

فأؤكد لها أني لا أقصد الى المكايدة ، وأقول : « نعم إن حواء واحدة مصيبة . . . وثق أن غلطة أبينا آدم هي أن جنته لم يكن فيها إلا هذه الحواء المفردة . . ولو كان فيها سواها . . عشر مثلا أو عشرون . . لما خرج من الجنة »

فتثور بي وتذهب وتعدو ورائي فأضع ذيلي بين أسناني وألوذ بالفرار »

وما أشك في أن ذات الثوب الأرجواني أسخطها عليّ نظري الى السمراء . وما تعنيني السمراء لو علمت . ولكنها المرأة لا تعرف إلا نفسها ولا ترضى عما تسميه « المين الزائفة » وهي تشعر بالمنافسة من كل امرأة مثلها ، ولا تستطيع أن تفسر النظر الى امرأة غيرها إلا بأنه تفضيل لهذه الأخرى عليها ولو كانت واثقة من حب بعلها أو رجلها . كنت مرة أتنزه في إحدى الحدائق مع صديقة فقالت « هل تركب زووقاً ؟ » فاستحسنت هذا الرأي وانحدرنا الى الماء واستأجرنا قارباً ، وقبل أن نمضي به تناولت ذراعي وهمست في أذني : « لا تتحرك . . . إني لا أكاد أصدق »

فرفعت عيني اليها فألفيتها ناظرة الى الحديقة التي انحدرنا عنها الى الماء . وكان الهواء ساكنا والمنظر الذي أمامنا كأنه مرسوم ، وكان لفرط جماله يذكرني بأعذب ما قرأت من الأغاني . ثم أشارت بيد أحلى من أناشيد سيمان بن داود وقالت : « ليتني أستطيع أن آخذها !! . » وكأنما قرأت في وجهي استغراب هذا الكلام فقالت « إنها أحلى لعبة رأيتها في حياتي ! »

فقلت مستفسراً « لعبة ؟ ؟ هل قلت لعبة ؟ ؟ أين هي ؟ »

فصاحت بي وهي تشير بأناملها المغربة « هذا . . هذا . . هذا المنظر . . ألا يروقك ؟ »

فأدركت مرادها وإن كنت قد بقيت أستغرب عبارتها ، وقلت « لا . . ليس هذا لعبة . . وإنما هو أسطورة . . »

فهزت رأسها كالموافقة ثم وضعت راحتها على كتفي وقالت « إني سعيدة لأني رأيت هذا »

قلت : « هو أسعد منك .. وما أكثر ما رأى هذا البستان من نساء ولكنه احتاج أن ينتظر الى اليوم حتى تروده حواء لها دل الفتاة وقلب الطفل »

قالت : « لا أظن . . » ثم رفعت وجهها الي وقالت : « انتظر .. لا تتحرك .. إني أنظر الى نفسي في عينيك »

فقلت — وقد أعجبني ذلك : « حسن .. والآن .. لا تتحركي أنت . . فاني أتأمل قوس هذه الشفة . . . »

فذهبت الى آخر الزورق وأرسلت لي مع الريح قبلة

وقالت وهي تجلس هناك : « إن الذي يعجبني منك هو هذا . . أنك لا تأخذني على غرة . . الأكثر في الرجال يعدون المرأة صيداً أو قنصاً . . أما أنت فتشجعني على استعمال حريتي وعلى الشعور بأن لي استقلالاً وإرادة يجب أن يحسب حسابهما . . وكأني بك يسرك أن تدع غيرك يحيا حياته على هواه هو ، أكثر مما يسرك أن تفوز من دنياك بمتع حياتك .. والآن ألا تمضي؟؟»

فقلت وأنا أضرب الماء بالمجداف : « إن فيما قلته عني بعض الغلط .. فأنا أحب أن أصحح لك هذا .. وأنا أعترف أني لست وحشاً . . إذا كان هذا ما تعنين . . ولكن نظريات أفلاطون لا تروقني .. نعم يسرني أن أرى كل انسان يحيا حياته كما يروقه — ولم لا ؟ — ولكن من أبرز نقط الضعف في نفسي أني أحب أن أحيا أنا أيضاً كما أشتهي »

فدنت مني وأراحت أناملها على كتفي ، وأسندت وجهها لي صدري وقالت وهي تضحك : « إنك عبيط .. ألست كذلك ؟ وهذا هو الذي يحببك الي .. »

قلت : « يا ملعونة .. » وأحطتها بذراعي — « ارفعي فكك فاني أريد أن ... أسوي ربطتي في مرآة عينيك ... »

وفي هذه اللحظة الحافلة بالاحتمالات خطرت في دائرة نظري

فتاة كان لا يسعنى إلا أن أراها . وليس لى فى هذا حيلة ولا كان منى عن عمد . ولكنها صارت أمام ناظرى ، فأنا لا بد أن أبصرها . وأحست صاحبتى أن عينى تحولت — كما كان لا بد أن يحدث — فحولت وجهها إلى حيث أنظر فأبصرت الفتاة ، فما كان منها إلا أن انتفضت قائمة ، وضربت المجداف من يدى ، وصاحت بى :

« ارجع بى حالاً ... الى البر ... قبل أن نبعد ... »

فذهلت وقلت : « ولكن لماذا ؟ ؟ . . . انا لم نبعد إلا خمسة أمتار ... »

قالت : « ليتنا بعدنا جداً ... ولكن لا ... كنت إذن أبقى مغشوشة ... مخدوعة ... ارجع ... أقول لك ارجع ... »

ولا حاجة الى رواية كل ما قالت وما أجبت به ، وليثق القارئ أن ريق نشف كما لم ينشف قط ، فقد ثقل على هذا الطبع ، وأضجرتنى هذه الغيرة السخيفة التى لا محل لها على كل حال . فبعد أن تألفتها من نفرتها ذهبت ألقنها درساً لا أظن أنها ستنساه فى حياتها

ولكن أمثال هذه الدروس لا خير فيها ولا جدوى منها ؛ وما أظنها إلا كالكتابة على الماء

وقد تظهر المرأة مجارانك ساعة تتلقى الدرس ، لأنها ترى هذه المجاراة والتظاهر بالاقتناع والتوبة أحزم وأحسم للنزاع ، ولكنها لا تملك أن تغير طبيعتها ، فهى تظل على الرغم من دروسك كما هى

وقد أحنقنى من ذات الثوب الأرجوانى هذا النفور الذى لا داعى له ، فغضبت وثرت وانتفضت ، فرميت ورقات كانت بيدى ؛ وكنت جالسا بحيث أراها وتراني ، ويظهر أن ما رأته من خروجى عن طورى المألوف أدهشها جدا ، فقد رأيتها تهب وتطل ، فسل من يريد أن يتثبت ويتحقق . ومضيت أنا فى ثورتى ، فجعلت أروح وأجئ فى الغرفة ، وأقول لنفسى :

« لماذا تحرم قبل أن تعطى ؟ ؟ لماذا تبدأ بالمنع ولا تبدأ بالجود ؟ ؟ لماذا تؤثر السوء ولا تؤثر الخير ؟ ما هذه الطباع ؟ وماذا جنيت أنا ؟ إنى أرانى وهبتها الشعور بحسنها حين أحببتها ، ولو أنها لم يحببها أحد لما وسعها أن تدرك أن لها حسناً يعشق وجمالاً يحب ... فشعورها بحسنها هو هبة وعطية منى ، لأنى أحببتها ... فكيف تتيه علىّ وتتدلل ، وتحاول أن تعذبنى جزاء لى على مجهودى الذى استفادت هى منه ولم أستفد أنا شيئاً ؟

أى يد لها علىّ ؟ ؟ أنى أراها ؟ ؟ فكل من شاء أن ينظر إلى شرفتها ساعة تكون فيها يستطيع أن يراها مثلى فلا فضل لها فى ذلك يحسب علىّ .. ماذا غير ذلك ؟ لا شىء .. انتهينا إذن ! . . وما دامت لا تختصنى بشىء فلا حق لها فيما تتكلفه من حرمانى . . . لو كانت لم تتكلف لما عبأت ولما أحسست أن فى الأمر عمداً . . ولكنها عامدة ولست أنوى أن أشايعها على ظلمى . . إذن فأنا أنفر كما تنفر . . . وأحتجب كما تحتجب وليكن ما يكون ! »

وبعد أيام عدت أقول لنفسى : « اسمع . . إنها ليست مثلك . أنت تستطيع أن تخرج ، وتروح ، وتجىء ، وتتسلى وتتلهى ، ولكنها مسكينة لا تملك ما تملك من الحرية ومن وسائل التعزى . . وما يدريك أنها ليست مضطرة الى هذا الذى ثقل عليك وكرهته منها ؟؟ ولا تنس أنها رقيقة القلب . . أليست قد رأت أنك تشكو ألما فى ذراعك فحدثتك نفسك أن قد بدا لك منها عطف كان له وقع حسن فى نفسك

وقد توسطت وخير الأمور الوسط — كما يقولون — فأنا لا أتكلف الاحتجاب ولا أتعمد أو أتحرى أن أراها ، وأدع هذا وذاك للمصادفة ؛ وسأرى ما يكون . وأخوف ما أخافه أن أمل هذا التعب المقيم فيركبنى عفريت العناد وأجازف

ابراهيم عبد القادر المازنى


## مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٥٠ قرشاً مصرياً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثانية ( فى مجلدين ) ٧٠ قرشاً عدا اجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثالثة ( فى مجلدين ) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد عن كل مجلد فى الخارج ١٥ قرشاً